مجله ادب عربی، سال ۳ ، شمارهٔ۳، زمستان ۱۳۹۰

# صورةالآخر العربی/الفارسی فی الروایتین الفارسیة والعربیة: أحمد محمود وعبدالرحمن منیف نموذجاً[۱]

**دکتر یدالله احمدی ملایری**

استادیار دانشگاه تهران

(از ص۳٦۳ تا ص۳۸٦)

تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۸۹/۱۲/۰٤ پذیرش: ۱۳۹۰/۰۵/۱۸

**ملخص البحث:**

تسعى هذه الدراسة المقارنة إلى إلقاء الضوء على صورةالآخر العربي والفارسي في روايات الروائي الإيراني أحمد محمود والروائي العربي عبد الرحمن منيف، متخذة من إنجازات المدرستين أميركية والسلافية آلية لإبراز نقاط التشابه والاختلاف في رسمهما لصورةالآخر. وبعد مسح شامل لنتاج الكاتبين الروائي الضخم، تراءى لنا تقسيم الدراسة إلى فقرتين رئيستين هما (۱)"صورةالآخر والتعاطف والإسقاط" (۲)" صورةالآخر بين الإيجاب والسلب"، وتبين لنا أخيراً أن الكاتبين و من خلال نظرتهما الإنسانية التعددية البعيدة عن الشوفينية رسما صورةلآخر يتعاطف فيها مع ما عاناه من المآسي والآلام الناتجة عن التخلف والاستبداد فالاستعمار، ويسقط ما يعانيهالآخر على ذاته وبالعكس، وذلك نتيجة ظروف المجتمعين الفارسي والعربي المتشابهة، كما يرسم الكاتبان صورةلآخر تكشف عن السلبي والإيجابي فی بعض نواحي العلاقات الإيرانية والعربية بطريقةٍ موضوعية بعيدة عن التشويه مما يجعل الرهان على مستقبل العلاقات رهاناً معقولاً.

***الكلمات المفتاحية:*** صورةالآخر، الرواية، محمود، منيف

---

۱. پست الکترونیکی نویسنده: malayeri75@ ut.ac.ir

المقدّمة

تسعي هذه الدراسة المقارنة إلى رصد ملامح صورة الآخرين العربي والفارسي في روايات الروائي الإيراني أحمد محمود والروائي العربي عبد الرحمن منيف. ووقع اختياري على الكاتبين لثلاثة أسباب رئيسة، هي(١): نظرتهما الإنسانية البعيدة عن الشوفينية والتطرف إلى الآخر في زمن يخاف فيه على المنطقة من احتدام النعرات الطائفية والقومية المتشددة، مما يجعل الكاتبين قدوتين لنظرةٍ ينبعث منها التعايشُ السلمي التعدّدي بين أبناء المنطقة بمختلف عناصرها ودياناتها و توجهاتها الفكرية،(٢) موقعُهما الهامّ على خارطتي الروايتين الفارسية والعربية، وكونهما من أهمّ المبدعين الفرس والعرب في مجال هاتين الروايتين، فهما من أبرز دعاة «التجريب» وممارسيه في الروايتين، إذا اختزلنا «التجريب» في «ابتكار عوالم متخيلة جديدة»، و«توظيف تقنيات فنية مستحدثة»، و«اكتشاف مستويات لغوية في التعبير تتجاوز نطاق المألوف» (فضل، ٢٠٠٤، ص١٠٤ ـ ١٠٥)، (٣) حياتُهما في فترةٍ زمنيةٍ واحدةٍ (بداية ثلاثينيات القرن الماضي حتى ٢٠٠٤ تاريخ وفاتهما).

وقد اعتمدت هذه الدراسة إنجازات المدرستين الأميركية والسلافية اللتين تركِّزان على نقاط التشابه والاختلاف بين الأعمال الفنية، وتقرّبان الدرس المقارن من الدراسة النقدية عبر تحويله إلى منهج للتذوّق الأدبي. (السيد، ٢٠٠١، ص٢٨ـ٣٣، وجيرمونسكي، ٢٠٠٤، ص١١) ويتراءى لنا أنّ استخدام هذا المنهج في الدراسات الأدبية المقارنة يسهم في ترسيخ الحوار الذي يجب أن يتأسّس على التعددية المبنية على الاعتراف بالآخر، بكيانه المستقل وخصوصياته الفكرية والثقافية. ولا شكّ في أنّ لمعرفة نقاط التشابه والاختلاف بين «الذات» و«الآخر»ـــ التي هي من المرتكزات الأساسية للمدرستين الأميركية والسلافية في الأدب المقارن ـ دوراً أساسياً في الإجابة عن سؤال الهوية الملحّ وفي الاعتراف بالآخر، الذي عبر العلاقة به تتعيّن هوية الذات.(غليون، ٢٠٠٠، ص ٤٨)

قبل الولوج في صلب الموضوع نشير بإيجاز إلى حياة الكاتبين وأهمّ أعمالهما:

وُلد الروائي الإيراني (أحمد محمود) في مدينة ( أهواز) جنوب غربيّ (إيران) عام ١٩٣١ (محمود، مردادـ شهريور ١٣٨١، ص ٢٦٥)، وعاش في هذه المدينة حتى عام ١٩٦٥حيث غادرها إلى (طهران)؛ وأقام في العاصمة الإيرانية إلى أن أسلم الروح عام ٢٠٠٤. لـ «محمود» عدّة مجموعات قصصية وعدد من السيناريوهات، أما رواياته فهي«الجيران» ( ١٩٧٤) و« قصّة مدينة» (١٩٨١) و«الأرض المحروقة» (١٩٨٢) و«مدار درجة الصفر» (١٩٩٤) و «الإنسان الحي» (١٩٩٨) و«العودة» (٢٠٠٣) و«شجرة تين المعابد» (٢٠٠٤).

وأبصر (منيف) النور عام ١٩٣٣ في (عَمّان) من والدة بغدادية ووالد نجديّ، وبقي في هذه المدينة حتى عام ١٩٥٣ عندما أنهى دراسته الثانوية. وتنقل الكاتب بين عدّة دول عربية وغير عربية حتى وافته المنيّة عام ٢٠٠٤ في (دمشق) (القوادري، ٢٠٠٩). من أهمّ أعمال (منيف) غير الروائية «الكاتب والمنفى» و«الديمقراطية أولاً... الديمقراطية دائماً»و«لوعة الغياب»و«رحلة الضوء»و«سيرة مدينة:عمّان في الأربعينات»؛ أما رواياته، فهي«الأشجار واغتيال مرزوق»(١٩٧٣) و«قصة حب مجوسية» (١٩٧٤) و«شرق المتوسط»(١٩٧٥) و«حين تركنا الجسر» (١٩٧٦) و«النهايات» (١٩٧٧) و«سباق المسافات الطويلة» (١٩٧٩) وخماسية «مدن الملح» (١٩٨٤ــ ١٩٨٩) و«الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى» (١٩٩١) و«أرض السواد» (١٩٩٩) و«أم النذور» (٢٠٠٥)، كما كتب رواية «عالم بلا خرائط» (١٩٨٢) بالاشتراك مع (جبرا إبراهيم جبرا)، وللكاتب عدد من المجموعات القصصية.

صورةالآخر العربي/الفارسي:

يقول (جلال الدين الرومي):«إنّ وحدة اللغة قرابة وصِلة/والحبيب مع الغرباء كالمقيّد/عسى أن يكون هنديّ وتركي متفاهمين/وعسى أن يكون تركيّان مثل الأجانب/فلغة اتحاد القلوب

شيءٌ آخر/إنّ اتحاد القلوب أحسن من وحدة اللغة»[1]. ويـرى الباحث أنّ المقصود بـ «وحدة اللغة» ـ في المصراع الأوّل ـ هو الاشتراك في أشياء ظاهريّة مثل اللغة والعنصر والدين ـ عنـدما يختـزل هذا الأخير في التقاليد الشكليّة الظاهريّة وأوراق الهويّة ـ في حين أنّ «اتحاد القلوب» اتحـاد فـي الأمور الباطنيّة التي تجمع بين الناس وتؤلّف بين القلوب، وهذه الأمور الباطنيّة يمكن تلخيصـها في الإنسانيّة التي هي العروة الوثقى بيننا وبين كلّ من يناظرنا في الخلق، حسب قول الإمام علي بن أبي طالب، حين قال للأشتر النخعي لمّا ولاّه على مصر:«... ولا تكوننّ عليهم [الناس] سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق» (الشـريف الرضـي، ١٣٧٢، ص ٣٦٧) ، فيرى الباحث أنّ اتحاد القلوب الذي يفضّله الشاعر هو الاشـتراك في النظـرة الإنسـانيّة إلى القضايا والإنسان، وخاصّة «الآخر» الذي يخالفه في أشياء مثل اللغة والعنصر وأحيانـاً الـدين، كما يؤكّد ثانية، وهو بصدد مقارنة النصّين المحمودي والمنيفي، أنّ هذه الرؤية الإنسانيّة تتجـاوز حدود الاتحاد الديني الذي يبدو للوهلة الأولى أنّه النقطة الأساسيّة المشتركة بين الفـرس والعـرب، ويتحقّق هذا التجاوز حين نعرف اختزال الدين ـ لدى كثير من الناس ـ إلى مجموعة تقاليد شكليّة تفرّق الناس أكثر من أن تقرّبهم، بعد أن كان جوهراً يتمثل في الفكرة الإنسانيّة التي تقول:«عاملوا الآخرين مثلما تريدون أن يعاملوكم» (الكتاب المقدس، ص ١٨)، حسب قول سيدنا المسـيح. والطائفيّـة المستشرية في أوصال المجتمعات المسلمة خير برهان على كلامنا هذا.

---

١. همزبانی خویشی و پیوندی است　　یار با نامحرمان چون بنـدی است
ای بسا هنـــدو و تـــرکی همزبان　　ای بسا دو ترک چـــون بیگانگان
پس زبان همدلی خود دیـگـر اسـت　　همدلی از همزبانی خوش‌تر است.

ونرى في روايات الروائي الإيراني (أحمد محمود) والروائي العربي (عبد الرحمن منيف) انعكاساً للنظرة الإنسانيّة (اتحاد القلوب)، فنتلمّس لدى الكاتبين نظرة متعاطفة ـ عبر نافذة إنسانيّةـ إلى الآخريْن العربي والفارسي، وبعض قضاياهما التاريخيّة المصيريّة، ويُذكر أنّ نظرة الكاتبين لا تختزل في هذا البعد التعاطفي، بل تشمل أيضاً البعد الموضوعي الواقعي الذي يتمثل في رصد الصفات السلبيّة والإيجابيّة لدى الآخر، كما يجب القول إنّ تعاطفية البعد الأوّل لنظرة الروائيين لا تُخْلِي هذه النظرة من الواقعيّة والموضوعيّة. وهذا ما نحاول عرضه من خلال هذه الورقة التي قسّمناها إلى قسمين: (أ) الصورة والتعاطف والإسقاط، و(ب) الصورة بين الإيجاب والسلب.

**أـ صورةالآخر والتعاطف والإسقاط:**

المقصود بالتعاطف ـ هنا ـ ذلك الشعور الذي ينتاب المتلقيَ بأنّ كلاً من الكاتبين ينظران إلى الآخر وقضاياه من منظار يقترب كثيراً من منظار هذا الآخر نفسه، إذ يشعر هذا المتلقّي أنّ كلّ واحد من الكاتبين يتعاطف مع الكاتب الآخر في ما يطمح إليه أو يعاني منه هو ومجتمعه، أمّا المقصود بالإسقاط هو أن يتطرّق كاتب إلى قضايا مجتمع آخر بغية إسقاط هذه القضايا ونتائجه المستخلصة من هذه القضايا على مجتمعه، ويمكن أن يعود هذا الالتفات نحو الخارج إلى عدة أسباب، أهمّها عدم وجود مثل هذه التجربة في الداخل أو الخوف من التصريح بها، وهذا ما يتجلّى للباحث وهو يدرس روايتي «سباق المسافات الطويلة» لـ (منيف)، و«الإنسان الحيّ» لـ (محمود).

وتتناول رواية«سباق المسافات الطويلة» حركة (الدكتور مصدّق) الوطنية في (إيران). ويقترب (منيف) في هذه الرواية من الرؤية المحموديّة التي تمثل رؤية شريحة واسعة من المثقفين الإيرانيين، أمّا في «الإنسان الحيّ»التی كُتبت عن معاناة الشعب العراقي تحت حكم الدكتاتور

العراقي السابق (صدام حسين)، فيقترب (محمود) من المنظور المنيفي، ويُذكر بأنّ أيّاً من الكاتبين لم يشر إلى اسمي (مصدّق) و(صدام)، فالأوّل ذُكِرَ في الرواية باسم (العجوز)، والثاني باسم (الرفيق الرئيس المهيب الركن)، لكنّ المتلقي يعرف من سياق الروايتين بأنّهما مقصودان، فأحداث روائية مثل «تأميم النفط» و«انقلاب آب العسكري»، وأسماء شخصيات مثل (شيرين) و(ميرزا) و(عباس) في «سباق المسافات الطويلة» تدلّ على أنّ«إحدى ممالك الشرق» ـ الواردة في النص الروائي ـ هي (إيران) نفسها، كما أنّ (العجوز) نفسه هو (مصدّق)، وكان الأخير قد تجاوز السبعين حين أصبح رئيساً للوزراء. هذا عن رواية «سباق المسافات الطويلة»، أمّا عن رواية «الإنسان الحيّ»، فيجب القول إنّ ذكر أماكن مثل (بغداد) و(الموصل) و(نهر دجلة) يقطع بأنّ المكان هو (العراق)، كما أنّ كونَ (الرفيق الرئيس) من (تكريت)، وإصلاحاته الكيمياوية في (بغداد)، وجعلَ البلاد «روضة ورد كبيرة» ـ في إشارة واضحة إلى «عملية الأهوار» ـ لا يترك مجالاً للشكّ في أنّ المقصود بـ (الرفيق الرئيس المهيب الركن) ـ في الرواية ـ هو (صدام حسين)، مع أنّ (أحمد حسن البكر) ملقب بـ (المهيب الركن) في التاريخ المعاصر العراقي.

وإذا كان هذا الشعور المتبادل المنتج لـ «التبادل الكِتابي» ـ إن صحّ التعبير ـ سرّ إيراد كلمة «التعاطف» في عنوان هذه الفقرة، فإنّ الإتيان بكلمة« الإسقاط» مردّه إلى ترسّخ هذه القناعة لدى الباحث بأنّ الكاتبين لم يتوخّيا من هذه «الكتابة المتبادلة» التعاطف مع الآخر فحسب، بل طمحا إلى إسقاط أوضاع هذا الآخر على الذات أيضاً، وهذا ما نحن بصدد دراسته هنا.

ونعايش في رواية «الإنسان الحي» معاناة الشعب العراقي في ظلّ حكم الطاغية (الرفيق الرئيس المهيب الركن) ـ هذا هو الاسم نفسه الذي ورد في الرواية الساخرة التي اختارت المزج بين المفردات والعبارات العربية والفارسيّة كإحدى طرق الوصول إلى لغتها الساخرة التي يبدو أنّ الكاتب زرع بين سطورها «ألغام ضحكة» ـ ويقدّم لنا الراوي عبر التراوح بين ضميري المفرد المتكلّم والغائب، كيف يقرأ (حنطوش أبو نواس قرقاوي) ـ «بطل» الرواية ـ في جريدة حكوميّة

مرسوماً رئاسياً تنموياً يتعهّد فيه (الرفيق الرئيس) «بإزالة البطالة والفقر، خلال أربع وعشرين ساعة وأربع دقائق وثانيتين».(محمود، ١٣٧٦، ص١١) وقد وضع (الرئيس) خططاً لنجاح هذا المشروع مثل إنتاج كمّ هائل من «القنابل الكيمياوية المعطِّرة»، لتطهير الجوّ من رائحة السمك، لكنّه وضع شرطاً لنجاح هذا المشروع، والشرط هو ألا يعرقل المشروعَ «المحتكرون» و«عُبّاد المال» و«المستغلّون» و«السماسرة» و«المخرّبون» و«الموظّفون الفاسدون»، ولم يكتف (الرئيس) بطرح المشكلة فقط، بل طرح الحلّ أيضاً، فطلب من الناس «بتواضع» أن يتصلوا به مباشرة، ويقدّموا إليه أسماء المعرقلين الذين يعرفونهم، أداءً لواجبهم «الوطني» و«القومي» و«حتى الإقليمي».(المصدر السابق، ص ١١ـ ١٢)

ويصدّق (حنطوش) ـ الفقير الحاصل على شهادةٍ في «رعاية الأبقار» من (فرنسا)! ـ هذا الكلامَ، ويبدأ بكتابة رسالة إلى (الرفيق الرئيس)، يَذكر فيها أسماء مجموعةٍ من الفاسدين يتراوحون بين «ذوي رقابٍ غليظة» والآخرين برقابٍ لم تتجاوز بعد مستوى «الإجاصيّة» إلى الغلظة! ويَذكر في هذه الرسالة، بالإضافة إلى أسماء الفاسدين، قصّته مع موظّفٍ أخذ منه الرشوة، ويقول (حنطوش) الراوي:«...لم أكن عديم الرجولة، فكتبت قصّة موظّفٍ، أخذ مني الرشوة... وكتبتُ من الثوم حتى البصل، كيف أراد أن يسوّفني، بداية، ثمّ كيف ابتسم ودعاني إلى شرب الشاى، لينقل إليّ ما يريده عبر حركات العينين والحاجبين، وكيف قدّمتُ له سيجارة، وكيف قال إنّه ينوي شراء بنطلون لابنه، ويحتاج إلى دينار واحد، وكتبت بقية القصّة: ثمّ لم يسوّفني، وتناول مشكلتي في منتهى الأمانة والصداقة والحميّة التي يحتاجها الموظّف، وفارقنا بعضنا بعضاً فرحَيْن ضاحكَيْن. الله يرحم والدَ (كريم المحمد آلبرتو)، حين قال لو زال قانون الرشوة في هذه البلاد، لن يصل أيّ عبد من عباد الله إلى مرماه».(المصدر السابق نفسه، ص ١٣ـ ١٤)

وبعد مضيّ أقلّ من يومين على هذه الرسالة التي يذكر فيها (حنطوش) رموز الفساد «من الثوم حتى البصل» ـ أي بإسهاب ـ يدقّ «زوار الفجر» باب بيته، قبل طلوع الشمس، ويأخذونه في

سيارة ـ هي عبارة عن بارٍ متجوّلٍ بكلّ محتوياته!ـ إلى القصر، وبعد أن يقلّد (الرئيس) (حنطوش) «وسام النسر»، يشارك في «برنامج تلفزيوني» ـ هكذا ورد في الرواية ـ ليتحدّث عن المشروع التنموي الرئاسي أولاً، وعن سرّ نجاحه في الحصول على هذه المكانة العالية المتمثلة في «وسام النسر»ثانياً. ونرى كيف يبدأ (حنطوش) كلامه بعدّ مناقب (الرئيس):«... قال «مدير البرنامج» ابدأ، فبدأت ـ قبل كلّ شيء ـ بألقاب (الرفيق الرئيس): مغيث الفقراء، ملجأ المتألّمين، شمس «المشارق والمغارب»، (حاتم الطائي) في زمننا، (صلاح الدين الأيوبي) في عصرنا، قائد القادسية «الكبير»...« (نفسه، ص ۴۹) وبعد هذا التصريح التلفزيوني الذي تمزج فيه العربيّة بالفارسية ـ وهذا ما لاحظناه في الترجمة عبر تنصيص المفردات العربيّة ـ بعد هذا التصريح يُعاد (حنطوش)، بحفاوةٍ ـ وقد بلغ الجوع منه مبلغاً لا يحتمل!ـ إلى بيته وسطَ جموع الناس الغابطة والحاسدة، ليُسلَّم، بعد فترة وجيزة، ظرفاً فيه كتاب من (الرئيس) يقضي بسفر (حنطوش) إلى (يوروپ) ـــ أي أوروبا ـــ لإكمال دراسته في اختصاصه «رعاية الأبقار»! ويحضّر (حنطوش) نفسه للسفر إلى (يوروپ)، لكنّه يؤخذ من المطار إلى السجن. وألقي (حنطوش) في (مطار بغداد)، وهو يريد ركوب الطائرة التي غادرت المطار لترجع إليها بحجة عطل فنّي، خطاباً للناس الموجودين في المطار والمعجبين بـ «بطل الشعب وبطل الخطابة عبر الدهور» (نفسه، ۵۲)، حسب يافطة في المطار، ويُكذب (حنطوش) في خطابه كلّ ما يقال عن ظلم (الرئيس) ونظامه، وذلك عبر لغة ساخرة تكشف لنا عمقَ ما يعانيه الشعب العراقي من هذا الطاغية الذي يريد أن يحوّل (العراق) إلى «مقبرة كبيرة» ويجعل من ناسه «الأحياء» نسخاً بديلة عنه. ويقول (حنطوش):«... بدأتُ كلامي بمدح (الرفيق الرئيس). ثمّ قلت كلّ من يقول إنّ (الرئيس) دكتاتور، فهو «غلطان»، أي مخطئ. وكلّ من يقول إنّ أجهزة السلطة حكر على الحزب، وفاسدة، فمخطئ، «أيضاً». كلّ من يقول إنّ الجيش يقمع بقوّة، فمخطئ، «أيضاً وأيضاً». كلّ من يقول إنّ جماعة (الرفيق الرئيس) وأقرباءه ينهبون البلاد، فمخطئ، «أيضاً» ثلاث مرّات. كلّ من يقول ربطوا الحجارة، وتركوا الكلب، فمخطئ، أيضاً أربع مرّات. زبدة الكلام كلّ من يقول

أي شيء، فهو مخطئ جدّاً. أنا جرّبت شخصياً، بلحمي ودمي، كإنسان حيّ وقف أمامكم. صدّقوني أنّ (الرفيق الرئيس) ليس لديه علم بشيء...» (نفسه، ص ٦٢ـ ٦٣)

ونعايش عبر هذا المقبوس بلغته المليئة بالسخريّة طريقةَ (الرفيق الرئيس) في الحكم، حيث يتلخّص كلّ شيء في القمع الذي يشمل كلّ نواحي الحياة، وعبّر الراوي عن هذا القمع بتوظيف المثل الشعبي«ربطوا الحجارة وتركوا الكلب»، والذي يقصد به تسليم البلاد، وقد كُبّلت بالقيود، إلى جلادين يشبهون الكلاب المفترسة، ويؤخذ (حنطوش)ـ بعد رجوع الطائرة إلى المطارـ إلى السجن، ومن ثمّ إلى ساحة الإعدام، ليعلم، قبل موته وبعده، عبر مشاهد غرائبيّة، أنّ كلّ ما مضى، من المرسوم الرئاسي وطلب المساعدة من الناس وغيرهما من الإجراءات الحكوميّة في هذا المجال، لم يكن إلاّ سلسلة خدع مدبّرة من أجل تعرّف إلى «الفضوليين»، وقمعهم، كما يقول (أبو حردان برقوقي)، وهو ناشط سياسيّ ألقي القبض عليه، بعد أن اعترف عليه (حنطوش)، حين قال: إنّه أخبره بانتشار المرسوم الرئاسي في الجريدة، لكنّ (حنطوش) لا يصدّق هذا الكلامَ لحسن ظنّه بـ (الرئيس)، فيظنّ ـ وهو سجين، فمُعدَم ـ أنّ (الرئيس) ليس على علمٍ بما يجري، ونراه مُصرّاً على حسن ظنّه به، وهو ميت، فيرفض أن يصدّق أنّ ما جرى له من السجن والتعذيب والإعدام جرى بعلم من (الرئيس). ويبقى هذا «الإنسان الحيّ» على هذه الحالة حتى يزور في مرّات عديدة، بعد إعدامهـ في مشاهد غرائبيّة ـ القصر الرئاسي والمراكز الاستخباراتيّة التابعة له، ليصدّق ما لم يكن يصدّقه عن النظام الحاكم في البلاد، وخاصّة عن (الرفيق الرئيس المهيب الركن)!

ولا شكّ في أنّ هذه الرواية تجسّد، بمغامراتها الغرائبيّة التي تمحي الحدود بين الحياة والموت، معاناة الشعب العراقي في ظلّ الطاغية الذي عمل طوال السنين، عبر تخدير عقول الناس، إلقاء أنّه أحسن من خُلق في الكون، وأنّ طريقته في الحكم تعلو ولا يُعلى عليها. وقد مارس هذا التخدير عبر إعلامه السلطوي الأخطبوطي الذي لا يسمح لأكثر من صوت أن يسمع، وواجب

باقي المجتمع أن يردّد هذا الصوت، ومن لم يؤدّ الواجب، فأمره إلى المخابرات والسجن والتعذيب والإعدام.

وإذا مثّلت صورة (محمود) عن (العراق) نوعاً من التعاطف مع الشعب العراقي، فإنّ هذه الصورة تمثل أيضاً إسقاطاً لهواجس الكاتب حول مصير (إيران). فينتاب الروائيَ الإيراني ـ كما نرى فى روايته «مدار درجة الصفر»ـ خوفٌ وقلقٌ من أن يكرّر التاريخ نفسه في بلده، فتراوح التاريخُ الإيرانيُ المعاصرُ منذ انتصار الثورة الدستورية عام ۱۹۰۶، بين التقدّم والنكوص، فإذا كانت الثورة الدستورية بدايةً حقيقية للديمقراطية والحريّة والتعدّدية وحكم الدستور، فإنّ انقلاب (رضا شاه) عام ۱۹۲۶ مثّل انحرافاً حقيقياً عن هذه القيم التي لم تنهض ثانية إلاّ برحيل الأخير عام ۱۹۴۰، وقُمعت النهضة الوطنيّة التي بدأت منذ هذه السنة واستمرّت حتى ۱۹۵۳، بهراوة الانقلاب العسكري في هذا العام، والذي أطاح بحكم (مصدّق)الديمقراطي، ولم يخرج قطار القمع الناتج عن هذا الانقلاب عن السكّة سوى بثورة ۱۹۷۹. ونرى أنّ هناك كميناً دائماً من جانب قوى الدكتاتورية والقمع والانغلاق في التاريخ الإيراني المعاصر لقيم التعددية و الديمقراطية، فمن المنطقي أن يخاف الكاتب من نظامٍ قمعي، يشبه نظام (المهيب الركن)، على بلاده التي قدّمت أنهاراً من الدماء ـ وخاصّة الدماء المثقفة ـ في تاريخها المعاصر في سبيل حكم القانون والديمقراطية والتعدّدية والحريّة.

وحين ننتقل إلى رواية «سباق المسافات الطويلة» لـ (منيف)، نرى أنّ الروائي يحكي قصّة وقوف الحكومة الوطنيّة الإيرانيّة بزعامة (الدكتور محمّد مصدّق) في وجه الإنكليز وإجبارهم على مغادرة البلاد. وتأتي هذه القصّة ـ في غالب الأحيان ـ على لسان (بيتر ماكدونالد) الجاسوس الإنكليزي الذي جاء إلى (إيران) ليشارك في «سباق» مع الأميركيين والروس من أجل الإطاحة بـ (مصدّق). ويقول (بيتر) إثر إقدام الحكومة الإيرانية على تأميم النفط واتخاذ تدابير أخرى مؤسِّسة لمنع التدخّل الأجنبي في البلاد:

«... لقد وجهت لنا إهانة ولن نتسامح فيها. لقد مرّغ شرف الإمبراطورية في الوحل حين أقدمت هذه الدولة على اتخاذ هذه الإجراءات، متنكرة لأبسط قيم العدالة والمنطق، ضاربة عرض الحائط بالمواثيق والقوانين. لا لم يقتصر الأمر على ذلك لقد تجاوزه كثيراً: اضطر رجالنا إلى الرحيل خلال أربع وعشرين ساعة. لقد وقف البريطانيون في قاعة المطار وفي الميناء مثل القطط المذعورة ينتظرون الرحيل».(منيف، ٢٠٠٠، ١٦٥)

و نعايش عبر كلام (بيتر) مدى انزعاج الإنكليز من سياسات الحكومة الإيرانية المعادية للاستعمار في فترة حكم (مصدّق)، فهم يشعرون أنّ شرفهم ـ المشوب بالتدخّل الاستعماري في الدول الأخرى ـ مُرغ بالوحل، كما أنّ تشبيه الإنكليز المغادرين لـ (إيران) بـ «القطط المذعورة»، فبالإضافة إلى إظهار مدى الصدمة التي انتابتهم، فإنّه يكشف لنا عن مدى خطورة الردّ المحتمل لهؤلاء الإنكليز على ما فعلته بهم الحكومة الإيرانيّة، فالمعروف أنّ القطط بقدراتها الخارقة على الهجوم تتحوّل إلى وحوش أكثر شراسة، إذا ذعِرت، وقد سُدّت في وجوهها طرق الهروب جميعها! ويتجلّى هذا الردّ ـ الذي يؤكّد (بيتر) على ضرورته بقوله «ولن نتسامح فيها»ـ في المؤامرات التي يحوكها الأميركيون والإنكليز بتنسيق مع جهات في الداخل من أنصارهم وأنصار (الشاه) وبعض «الجماعات الدينية أو اليسارية» (المصدر السابق، ص ٣٣٧) المعارضة لـ (مصدّق). ولم يكن الأميركيون والإنكليز وعملاؤهم في (إيران) وحيدين في سباقهم للانقضاض علي حكومة (مصدّق) الوطنيّة، فهناك منافسون قدامى يتمثلون في الروس، المذكورين في الرواية باسم (الآخرين)، فهم كانوا وما يزالون«...ينتظرون اللحظة المناسبة لكي يقفزوا ويصلوا إلى المياه الدافئة. لقد كان هذا حلمهم منذ مئات السنين وسيبقى هذا الحلم الهاجس الوحيد الذي يدفعهم ويحركهم». (المصدر السابق نفسه، ص ٣١٧)

لكنّ (مصدّقاً) لا يخضع لإغراءات هؤلاء وتهديداتهم، ويستمرّ في الطريق الذي يراه منسجماً مع المصالح الوطنيّة الإيرانيّة حتى اللحظة الأخيرة، حين انقلبوا عليه عسكرياً واعتقلوه وسجنوه في

بيته حتى أنفاسه الأخيرة ـ كما يقول التاريخ المعاصر الإيراني ـ كما قمعوا رجاله بإصدار أحكام الإعدام والسجن بحقهم، مثل ما فعلوا بـ«وزيره الأول»ـ وهو (الدكتور حسين فاطمي) الذي لم تذكره الرواية بالاسم، مكتفية بعبارة «الوزير الأول»ـ حين أقدموا على إعدامه، وهو لم يكن بملابسه المضرّجة بالدماء قادراً على السير، بعد أن ألقي القبضُ عليه«في مكان تحت الأرض. وقبل أن يخرج إلى الشمس كانت عشرات السكاكين قد انغرزت في كل مكان من جسده» (نفسه، ص ٣٩٣).

ويمدح الروائي ـ على لسان (بيتر)ـ صمود (مصدّق) ورجاله في وجه الضغوط والمؤامرات الخارجيّة والداخليّة بقوله:«... فقد ظل العجوز يناطح مثل ثور، ظل يحارب دون توقف، دون تراجع، وغير عابئ بالنتائج. كان الجنود يتساقطون حوله، كان رجاله يتساقطون في كل مكان، لكنه ظل يقاوم ويقاومون... وعلي أن أقرّ بالجرأة التي تميّز بها أغلب الذين حاربوا. أمّا الذين تخلوا، خاصة في الفترة الأخيرة، فإني أنظر إليهم باحتقار، مهما كانت مواقف الأميركيين منهم ورضاهم عنهم. بكلمة واحدة: سقط العجوز وهو واقف، وبدا في سقوطه أكبر وأخطر مما كنت أفترض أو أتصور!» (نفسه، ص ٣٩٢) ونشعر من خلال هذا المقبوس أنّ (منيفاً) ينوّه ـ وعلى لسان شخصيته الروائي (بيتر) ـ بنضال (مصدّق) وأنصاره المخلصين من أجل وطنهم، غير آبهين بأعدائهم، في الداخل والخارج الذين كشّروا عن أنيابهم من أجل الانقضاض عليهم. ويبدو أنّ تشبيه نضال (مصدّق) العجوز بنطاح الثور إشارةٌ واضحة إلى طريقة هؤلاء في نضالهم، فهم رغم لباقتهم في المناقشات والعلاقات وعدم إساءتهم للأطراف الأخرى (نفسه، ص ١٦٩)، لا يتنازلون قيد أنملة عن مصالحهم الوطنيّة، مع أنّ أحضان الروس والأميركيين والإنكليز كانت جاهزة لاستقبال (مصدّق) وأنصاره، كما تقول الرواية وكتب التاريخ. ولا يكتفي (منيف) بتمجيد هؤلاء المناضلين الصامدين، بل نراه يحتقر أعداءه الإيرانيين والأجانب. ويبدو للباحث وهو يرى هاتين الصورتين للآخر الإيراني ـ واحدة لوطني مناضل وأخرى لمتحالف مع الأجنبي ـ وكأنّه يقرأ لـ (محمود)،

أو أيّ كاتب إيراني آخر يؤمن بطريق (مصدّق)! ولعلّ مردّ هذا التعاطف إلى اتّحاد في النظرة الإنسانيّة التي أشرنا إليها في بداية هذه الورقة.

ولا تبقى النظرة المنيفيّة هذه مقصورة على التعاطف، بل تجتازها إلى مجال الإسقاط على العالم العربيّ، فهو الذي يتطلّع إلى حكومات ديمقراطية في الدول العربية، يبدو أنّه رأى في (مصدّق) في التاريخ الإيراني ـ كما في (داود باشا) في التاريخ العراقي ـ نموذجه المختار، وهذا ما يعبّر عنه (منيف) على لسان (راندلي) رئيس (بيتر)، حين يرى في حركة (مصدّق) خطراً لمستقبل مصالح القوى الاستعمارية في الشرق كلّه، يقول (راندلي):«... إن ما نواجهه في الشرق، يا بيتر، شيء خطير للغاية، أخطر مما تتصور للوهلة الأولى، والخطورة ليست في الشيء الذي حصل وإنما في الشيء الذي سوف يحصل. ما حصل يمكن أن نحتمله بشكل ما، يمكن أن نتكيّف مع النتائج التي ترتبت عليه، مع أن هذا يسبب لنا خسائر وآثاراً سيئة للغاية. الشيء الذي لا يمكن أن نحتمله أبداً: العدوى. أتفهم ماذا تعني العدوى؟ هذا هو الشرق. الشرقيون، كما قلت لك، عاجزون، وغير قادرين على اتخاذ قرارات، لكنهم عباقرة في التقليد، كما أنهم كالقطيع يسيرون وراء الكبش الأول. ما حصل الآن، وفي هذا المكان، يمكن أن يحصل مثله غداً في أمكنة أخرى».(نفسه، ص ٢٢١)، ويتبيّن لنا من خلال نظرة (راندلي) إلى الآخر الشرقي ـ والتي هي في الحقيقة نقدٌ منيفي للذات الشرقيّة ـ مدى أهميّة قادة وطنيين ديمقراطيين مثل (مصدّق)، يؤمنون بقيم الانفتاح والتسامح والتعدّد وحقوق الإنسان والحريّة، دون أن يتنازلوا عن مصالحهم الوطنية، على خلاف المستبدّين الذين يتطاير الزبد من أفواههم من شدّة التشدّق بمعاداتهم لـ «الأعداء الخارجيين»، مع أنّهم ـ في الحقيقة ـ يرتمون في أحضان هؤلاء«الأعداء»، وليس هذا التشدّق سوى وسيلة لقمع المعارضة في الداخل عبر إلصاق تهم جاهزة مثل عمالتهم للأجانب!

لا يقتصر (منيف) على إشادته بـ (العجوز) بل يذمّ معارضيه أيضاً، ونراه يطلق عليهم على لسان (بيتر) صفاتٍ مثل «المترهلين» و«الخنازير» و«المستعبدون» و«الجوارب المخروقة» و«الجبناء»

و«الشرهين التافهين» (نفسه، ص ١٦٧ و ٢٣٠ و٢٣٣ و٢٨٠ و٣٢٧)، ولا شك في أن جريان هذه الأوصاف على لسان (بيتر) الإنكليزي الذي جاء لإسقاط (العجوز) يضفي مصداقية على هذه الصورة، فشهادة « شاهد من أهل» الأعداء أكثر مصداقية من شهادة الغير، كما أنّ شهادة (بيتر) على ميزات (العجوز) الإيجابيّة كانت أكثر إقناعاً، فالفضل ما شهد به الأعداء!

ويكتشف المتأمّل في روايات (محمود) ورواية «سباق المسافات الطويلة» لـ (منيف) أنّ حركة (مصدّق) الوطنيّة هي القاسم المشترك بين هذه الروايات كلّها، وكما خَصّص (منيف) روايته ـ كاملة ـ لرصد هذه الحركة والمؤامرات التي حيكت ضدّها، فإنّ لروايات (محمود) حبلاً سرّياً يربط جميعها، ويتمثل هذا الحبل في تلك الحركة الوطنيّة، بالإضافة إلى أنّ روايات «الجيران» و« قصّة مدينة» و«العودة» لـ (محمود) خُصّصت لرسم هذه الحركة والانقلاب العسكري ١٩٥٣ وتداعياته، واللافت أنّ الروائيّيْن يشتركان في إيراد بعض التفاصيل عن هذه الحركة الوطنيّة، على سبيل المثال قصّة إعدام (الدكتور حسين فاطمي) ـ لكونها قصّة معروفة ـ مطروحة في كلّ من روايتي «قصّة مدينة» و«سباق المسافات الطويلة». ونكتشف من خلال معالجة (منيف) لهذه القصّة، نقطةً أخرى من النقاط المشتركة بين الكاتبين، وهي تركيز (منيف) على استغلال الحكومة الانقلابيّة لمشاعر الناس من أجل قمع المعارضة المتمثلة في أنصار (مصدّق)، وذلك حين تشير الرواية، بعد ذكرها لانغراز عشرات السكاكين في جسد (فاطمي)، إلى أنّ السلطة قالت:«إنّ الجماهير الهائجة فعلت ذلك».(نفسه، ص ٣٩٣)، وكما نرى في النصّ المحمودي فإنّ الجماهير كانت مصدراً مهمّاً لاستغلال السلطة وراكبي الأمواج، خاصّة في المنعطفات التاريخيّة، فثمّة خوف دائم يطارد الكاتب من هذه الناحية. ويجد قول السلطة ـ في رواية (منيف) ـ ما يبرّره حين نعرف أنّ الجهلة من الناس كانوا يرون في أمثال (فاطمي)، نتيجة لدعايات (الشاه) وعلماء الدين المناصرين له، خطراً كبيراً على تقاليدهم الدينيّة، فكان (فاطمي) ـ دوماً ـ غرضاً لسهام الجماعات الدينيّة المتشدّدة.(آبراهاميان، ١٣٨٣، ص ٢٤١)

وفي نهاية الحديث عن صورة الآخر ـ عندما يشوب هذه الصورة التعاطف والإسقاط ـ تجدر الإشارة إلى نوع آخر لصورة الآخر العربي لدى (محمود)، والتي تبقى في إطار التعاطف فقط، فنرى هذه الصورة في رواية «الأرض المحروقة»، حين يرسم الروائي الشعبَ العراقي ضحيّةً للحرب التي اندلعت بين الحكومتين العراقية والإيرانية، كما أنّ الشعب الإيراني ضحيّة لها، ونرى من خلال الحوار الآتي كيف يندّد الناسُ بأمريكا و«الإمبريالية»، ويتعاطفون مع الشعب العراقي:

«ـ حربنا ضدّ الإمبريالية. نقاتل الأمريكيين!

ـ نحن نقاتل أمريكا، لكنّ الشباب العراقيين تصبح جثثهم طعامَ الوحوش في الصحاري!

ـ تتعاطف مع العراقيين؟!

ـ أتعاطف مع كلّ الذين أصبحوا ـ رغماً عنهم ـ فرائس للحرب، لا فرقَ... نحن نستطيع أن نعيش جنباً إلى جنب، نستطيع أن نتبادل الحبّ!» ( محمود، ١٣٨٢، ص ١٩٩ـ ٢٠٠)

وتتجلّى هنا النظرةُ الإنسانية البعيدة عن الانغلاق الذي يجد مجالاً خصباً للظهور في ظروف الحرب وما شابهها، فنرى كيف يقترح الكاتب «تبادل الحبّ» بدل «تبادل النيران» الذي هو السمة الأساسية لـ «الحرب»، وتبرز أهميّة هذا التعاطف مع الشعب العراقي، حين نعرف أنّ شقيقاً للكاتب اسمه (محمّد) استشهد في الحرب نفسها، وهذا ما يشير إليه الروائي في عتبة من عتبات النصّ، حيث يكتب «ذكرى شقيقي (محمّد) الذي استشهد».

**ب ـ صورةالآخر بين الايجاب والسلب:**

يجد المتأمّل في روايات (منيف) و(محمود) أنّ هذين الروائيين يرسمان ـ إلى جانب تلك الصورة عن الآخر الفارسي/العربي المشوبة بالتعاطف والإسقاط ـ صورة تخلو من هاتين الميزتين لتدور في فلك الإيجاب أو السلب، فسنرى كيف يقدّمان صورة عن الآخر شملت جوانب هامّة من العلاقات الإيرانيّة ـ العربيّة عبر التاريخ.

ـ النظرة الآيجابيّة:

نرى في رواية «الجيران» صورة إيجابيّة للعرب، حين تصبح (الكويت) المكان الذي يغادر إليه المواطنون الإيرانيون من أمثال (الأسطة حداد) و(ناصر دواني)، بعد أن سُدّت في وجوههم سبل العيش كلها في وطنهم، نتيجة سياسات الحكومة الاستهلاكية التي سبّبت تراجعاً ملحوظاً لفرص العمل في البلاد. وإذا كانت الكويت في «الجيران» ملجأ للإيرانيين الذين فقدوا آمالهم في العثور على عمل في بلادهم، فتصبح مدينة (العمارة) العراقيّة ـ في الرواية نفسها ـ نقطة ضوء في نهاية الدهليز بالنسبة إلى سجين إيراني هرب من السجن بعد أن حكم عليه بالإعدام، ويعبّر الراوي السجين عن بصيص أمل زميله الهارب بقوله:«أعرف أنّ المسافة بين (شوش)[1] و(العمارة) ليست بعيدة، وأعرف لو أنّه اجتاز غابات (شوش) عبر النهر، سوف يصل إلى (العمارة) قبل طلوع الشمس».(محمود، ۱۳۵۷، ص ۴۱۰)

وفي الاتجاه نفسهـ أي عندما تصبح البلدان العربيّة ملجأ يلوذ به الإيرانيون من اضطهاد الداخل ـ نرى في «قصّة مدينة» أنّ بعض البلدان العربيّة تمسي ملجأ يهرب إليه بعض سكان مدينة (لنگه) الإيرانية، تخلّصاً من أذى السلطة المستبدّة، وحفاظاً على ما يعدّونه عقائدهم الدينيّة. ويقول (عدناني) ـ أحد شخصيات الرواية ـ مسترجعاً، وهو يحاور الراوي:« ـ خربت (لنگه). عندما منع ارتداء الحجاب، خربت (لنگه)! أخذ الناس، في الليل، أيدى نساءهم وأولادهم، وأخذوا طريق البحر. ذهبوا إلى (قطر) و(الشارقة) و(دبي) و...» (محمود، ۱۳۷۹، ۳۹۱) وحصل ذلك عندما منعت الحكومة الإيرانية في «خطوة لتحسين موقع المرأة في عام ۱۹۳۲» (آبراهاميان، ۱۳۸۳، ص۱۳۱) ارتداء الشادرـ وهي عباءة تغطّي الجسم وغالباً ما تكون سوداء ـ وأثار هذا

۱. مدينة إيرانيّة قديمة في محافظة (خوزستان) جنوب غرب البلاد.ـ

الإجراء الذي عدّه البعض« قمعاً بوليسياً» ليس من قبيل حريّة المرأة، موجةَ احتجاجاتٍ واسعة في (إيران) (المرجع السابق، ص ١٣٢و ١٣٩ـ ١٤٠).

إذا قدّم (محمود) صورة إيجابيّة للعرب من خلال التاريخ المعاصر الإيراني في خمسينيات القرن العشرين، زمن أحداث «الجيران»، وثلاثينياته، زمنَ منع ارتداء الحجاب في «قصّة مدينة»، فإنّ (منيفاً) قدّم هذا اللون من الصورة للفرس، حين حفر في التاريخ المملوكي فترة حكم (داود باشا) على العراق.

وقدّم الكاتب صورة إيجابية للفرس على لسان القنصل البريطاني (ريتش)، وهو يقارن بين القوميّات القاطنة في المنطقة، بعد أن جال فيها كلها:

«في يوم آخر، وحين استعرض وجوه الولاة والحكام الذين رآهم في هذه السفرة، أو حتى الذين عرفهم في بغداد، وقارن بين النظام السائد هنا وذاك الموجود في إنكلترا، كتب:«الأمة لا تتقدم بالقوة أو بالإكراه، كما لا تتقدم بجهود فرد، مهما كان، ومع ذلك فإن للإيرانيين كفاية أوسع من الأتراك، ولو كانت اسطنبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد من الوقوف في صف الأمم الأوروبية. ذلك لأن الدين الإسلامي هو الذي يحول دون الرقي...» (منيف، ٢٠٠٢، ج٣، ص ١٩٦) ونرى أنّ الشخصيّة الروائيّة تفضّل ـ في المحصّلة الأخيرة لمقارنتها ـ الإيرانيين على غيرهم من أبناء المنطقة، رغم أنّها ترى جميعهم متخلّفين، نتيجة ديانتهم المشتركة التي تحول ـ برأيها ـ دون رقيهم!

ولا يكتفي (منيف) بهذه الصورة الكليّة الإيجابيّة للإيرانيين، بل يركّز على بعض مصادر التراث الفارسيّ مثل الشعر والقصّة والعمارة، فنراه يشيد، على لسان (الشاعر الصفوي) ـ أحد الشعراء المقرّبين من الوالي(داود باشا) ـ بمعرفة هذا الوالي بالشعر الفارسي إلى جانب الشعر العربي(المصدر السابق، ج٣، ص٨١)، كما يذكر تَغنّي الأكراد بقصّة «فرهاد وشيرين» (المصدر السابق نفسه، ج٣، ص١٨٦)، وهي من أهمّ القصص الغراميّة في الأدب الفارسي، والتي نظمها أكثر من شاعر فارسي، بالإضافة إلى ذلك، فيشيد (منيف) بالعمارة الفارسيّة على لسان (ريتش)، حين سافر إلى

ولاية (سنه) غرب (إيران):« ... فاجأتنا المناظر الجميلة مفاجـأة سـارة. ولجنـا الممـرات تكتنفهـا أشجار الحور الباسقة الجميلة من الجانبين إلى قصر فخم، تحيط به الحدائق، وأحواض مربعة تعلوها النافورات، وهي أمام القصر وخلفه. وكان القصر شامخاً وقد زُيِّن بـالنقوش المذهبـة علـى الطـراز الإيراني».(نفسه، ج٣، ص ١٨٨)

بالإضافة إلى التراث الثقافي الفارسي، يشيد الكاتب بمهارة الإيـرانيين فـي الطـبخ وتحضـير الحلويات، فنرى أنّ طباخ (داود باشا) الخاصّ، (مصطفى الأردبلى)، إيرانـيّ، كمـا أنّ (جمشـيد برهاني) المعروف بـ (جمولي)، وهو إيرانيّ أيضاً، طباخ خاصّ لـ (الكيخيـا يحيـى بـك) مسـاعد الباشا. ويشير الراوي إلى مهارة (جمولي) العالية في الطبخ من خلال وصفه لـ (الكيخيا):«... كان لديه طباخ فارسي، جمشيد برهاني، يعرف كيف يلبي رغباته بإعداد أنواع من الأطعمـة لا يحسـنها غيره من طباخي السراى...»،(نفسه، ج٢، ص٤٨٣) أمّا عن الحلويات الإيرانيّة، فيقـول الروائي علـى لسان (ريتش) وهو يحاور أحد رجاله الذي يريد أن يبعثه إلى (إيـران) طالبـاً الـدعم الإيرانـي لإسقاط (داود باشا):»ـ يجوز تعرف يا ميناس أفندي أن مثل الإيرانيين بصناعة الحلويات ما تلقـى بالدنيا كلها».(نفسه، ج٣، ص ٢٠٦)

ـ النظرة السلبية:

ما يلفت النظر في رسم الكاتبين لصورة الآخر الفارسي/العربي السلبيّة أنّهما استقياها من الواقع، ممّا مكّنهما من تقديم صورة تنطوي على نقد للآخر دون أن تشمل تشويهاً لصورته، في زمن أصبح التشويه خبزنا اليومي على مائدة «نقد» الآخرـ أجنبيّاً كان أم مخالفاًـ نتيجة غياب المعرفة وممارسة النقد، حتى بات تدميرُ «الآخر» إثباتاً لـ «الذات»!

ونرى في «الجيران» صورة سلبيّة للعربي الكويتي، حين يعامل العاملَ الإيرانـيّ باسـتعلاء، في الوقت الذي يخضع هذا العربي للغربي خضوع العبد لسيده، كأنّ القوة والمال يحـدّدان طريقـة

التعامل مع الآخر، ويقدّم الراوي المتكلّم هذه الصورة من خلال رسالة بعث بها أبوه (الأسطة حداد) من (الكويت):«قد كتب أبي: «في (الكويت) نقودٌ كثيرة، لكنّها ممزوجة بالهوان والذلّة.» كتب: «تظنّ أنّ العرب عبيد الغربيّين، وأنت عبد العرب. ينفخون في أفواههم، ويضربون بالخيزران على رأسك وظهرك، كأنّك لست إنساناً».(محمود، ١٣٥٧، ص١٢٤) ويضع الكاتب ـ من خلال استخدام التشبيه في الجملة الأخيرة ـ إصبعه على ما يعدّه بعض الباحثين المشكلّة الأساسيّة في مجتمعاتنا المقهورة المتخلّفة، وهي مشكلة عدم الاعتراف بإنسانيّة الإنسان أو «هدر إنسانيّة الإنسان» والتي أصبحت الأطروحة المركزية في كتاب (د.حجازي) «الإنسان المهدور»:«هناك إذاً ما هو دون انعدام الديمقراطية والحريات والاستبداد والقهر، وهو هدر إنسانية الإنسان وعدم الاعتراف المسبق بكيانه وقيمته وحصانته...إننا بصدد هدر لإنسانية الإنسان متعدد الأبعاد والمستويات والألوان بدءاً بهدر الدم وادعاء الحق في التصرف بالكيان، وانتهاءً بهدر الوعي والحجر على العقول، ومروراً بهدر الطاقات الحية من خلال الحرب عليها والتفنن بأساليب قمقمتها. لا يمكن أن تكون هناك حرية أو ديمقراطية أو مواطنة في حالة هدر الإنسان هذه... فقط بعد الاعتراف بإنسانية الإنسان وكيانه بشكل غير مشروط يصبح المجال مفتوحاً للحديث في الحرية، وإقامة الديمقراطية، ومجتمع المؤسسات...» (حجازى، ٢٠٠٦، ص٢٦ـ ٢٧) ويشترك (منيف) مع (محمود) في طرحه لهذه المشكلة، حين يقول (رجب إسماعيل) في «شرق المتوسط» إنّ «الإنسان في بلادنا أرخص الأشياء، أعقاب السجائر أغلى منه».(منيف، ١٣٨٣، ص ١٨٦) وتبرز دلالة تفضيل أعقاب السجائر على الإنسان في «بلادنا»، حين نتذكّر اقتصار حياة السجائر «المسكينة» في «السجن الجماعي المنظّم» ـ في العلبة ـ في الحرق والسحق بالأحذية!

وإذا عايشنا عبر الصورة السابقة في «الجيران» ملمحاً واقعياً عن واقع قيمة الإنسان وحقوقه في العالم العربي، فهناك في «قصّة مدينة» صورة سلبيّة أخرى للآخر العربيّ حين يتجاوز حدوده ويدخل المياه الإقليمية الإيرانية، لكنّه لا يكتفي بذلك بل نراه كذلك يعتدي على الصيّادين

الإيرانيين الذين يعملون داخل حدودهم، ويرسم الراوي (خالد)، وهو في «مقهى التلّ» في مدينة (لنگه) الساحلية، هذه الصورة عبر استرجاعه لصوت إحدى الشخصيّات المحليّة في الرواية «... جلستْ في الظلام البعيد، أضواءُ مصابيح ملوّنة لسفينة صغيرة تتزلّج على مياه البحر. حركة السفينة بطيئة... لعلّها من سفن الصيد الأجنبيّة التي تأتي بين حين وآخر وتمزّق شباك الصيّادين... صوت (لالْ محمّد) الأجشّ في أذني:

ـ من البحرين... من الشارقة... من عمان... يأتون للصيد... البحر كبير ونحن لسنا بخلاء، اصطد يا أخي، لكن لماذا تمزّق شباكنا؟ لا أحد يستطيع أن يمنعهم، أصلاً ليس هناك أحد حتى نقول يستطيع أم لا!».(محمود، ۱۳۷۹، ص۸۳) وغنى عن التأكيد أنّ ضمّ صوت الراوي ـ الشخصيّة بصوت الشخصيّة المحليّة التي عاشت حياتها في المنطقة يُعطي للصورة دفعاً قوياً ومصداقيّة مقنعة، كما أنّ استخدام هذه الشخصيّة المحليّة لفعل المضارع يدلّ على استمراريّة هذا الاعتداء الذي خلق للعربي صورته السلبيّة في المقبوس. ولا تكتفي هذه الشخصيّة المحليّة برسم صورة الآخر، بل يوجّه نقداً لاذعاً للداخل، حيث السلطة المستبدّة التي تركت مواطنيها مكتوفي الأيدي كالقشّة في مهب رياح الاعتداء والاضطهاد.

وحين ننتقل إلى النصّ المنيفيّ، نعاين الصورة السلبيّة للآخر الفارسي في رواية «أرض السواد»، حيث تبرز الحكومة الإيرانيّة المتمثلة في (كِرْمَنْشاه) ـ الولاية الإيرانية المجاورة للحدود العراقية في زمن الحكاية ـ عدوّاً للعراق ووالیه (داود باشا) بتدخّلاتها المستمرّة في شؤون (العراق)، وإيوائها لأعدائه، وتحالفها مع (ريتش) القنصل البريطاني في (بغداد) للقضاء على (داود) الوالي الذي يريد (العراق) مستقلاً ومزدهراً. ونرى كيف أنّ (الشاهزاده) والي (كرمنشاه) يعد الأغوات الأكراد في (الشمال) عبر تقديم الإمداد المالي (منيف، ۲۰۰۲، ص۴۳۲)، تارة، ويتوعّدهم بأخذ أولادهم رهائن لديه، تارةً أخرى، ضماناً لولائهم.(المصدر السابق، ج۳، ص ۱۷۵ و ۱۹۳) وعن إيواء (كرمنشاه) لمعارضي (السراى) ـ قصر الوالي في (بغداد)ـ فنرى أنّ (سيد عليوى) يهرب إلى

(كرمنشاه) بعد أن يُخفف حكم الإعدام عليه، نتيجة تدخّل (الباليوز) ـ قنصلية بريطانيا ـ زمن حكم الوالي (سعيد باشا) (المصدر السابق نفسه، ج٢، ص٤٠٧)، ليعود إلى (العراق) لمساعدة (داود باشا) في الإطاحة بحكم (سعيد باشا)، لكنّه ونتيجة طمعه في السلطة، لا يرضى بأن يكون الشخص الثاني في (العراق) بعد الوالي (داود)، ويخطّط بالتنسيق مع (الباليوز) و(كرمنشاه) لانقضاض على السلطة و(داود باشا)، لكنّ الأخير يكشف خيانته ويُعدمه. ولا ينتهي دور (كرمنشاه) في الرواية بإعدام حليفها (سيد عليوى)، بل تصبح أمل (ريتش) في القضاء على (داود) بعد أن خسر رهانه على (عليوى). وهذا ما يعبّر عنه (ريتش) وهو يبعث رسوله (ميناس) إلى (كرمنشاه):« ـ ... وتقول للشاهزاده: كل يوم إضافي خسارة جديدة؛ وإذا كان له، حتى الآن كلمة في الشمال، فإن داود يسعى للسيطرة على الأول والتالي. وداود إذا تمكن لا يُعرف ماذا يفعل وإلى أين يمكن أن يصل!» (نفسه، ج٣، ص٢٠٥)

وأخيراً يجب أن نسجّل للروائيين عدم تشويههما لصورة الآخر، فسعيا عبر نبشهما لرماد التاريخ العربيّ والإيرانيّ إلى رصد صورة موضوعيّة تشكّل رصيداً فكريّاً للأمتين الفارسية والعربية في تحدياتهما الراهنة والمستقبلة، كما يُسجَّل لـ (منيف) ما نعدّه رسمه لصورة طموحة لمستقبل العلاقات العربية الإيرانية التركية، وذلك عبر صياغة فنيّة لنهاية «أرض السواد»، إذ لم يوحّد بين مآل علاقة (داود باشا) بالإيرانيين والأتراك ـ كما ترويه كتب التاريخ ـ وما تؤول إليه هذه الشخصيّة في نهاية الرواية، فنقرأ في التاريخ وقوع صراعات بين (داود) والإيرانيين، كما نقرأ إطاحة الحكومة العثمانيّة به ونفيه إلى الجزيرة العربيّة (جمل، ١٩٩٧، ص٤٧ـ ٤٨) ، غير أنّ أيّاً من هذين الحدثين لم يذكرا في الرواية، مما يشير إلى طموح الكاتب إلى علاقات حسن الجوار بين أبناء المنطقة كلّهم، وعدم الوقوع في الأخطاء التي ارتكبوها بالماضي!

**خاتمة البحث:**

النظرة الإنسانية إلى الآخر، وهي نظرة بعيدة عن الشوفينية، ينبثق عنها الانفتاح على الآخر والابتعاد عن الانغلاق على الذات. هذه النظرة الراقية نعايشها عبر النصّين المحمودي والمنيفي كممثلين للروايتين الفارسية والعربية. و تجلت هذه النظرة الإنسانية المنفتحة التعدديّة مرّة في التعاطف الذي أبداه كلّ من الكاتبين مع جيرانه ليس في الجغرافيا فحسب بل في بقعة واسعة من التاريخ و الثقافة والتقاليد أيضاً، ورأينا كيف أسّسا بوعيهما بهذه الخلفية المشتركة وكذلك الواقع المتشابه الذي يعيشه المجتمعان الفارسي والعربي مما أمكنهما للإسقاط أيضاً، أسّسا للنصّين المتعالقين، تعالقَ مصائر شعوب المنطقة كلها، واللذان يكشفان عمّا يعانيه المجتمعان من آلام مشتركة نابعة من قوى التخلف والقمع الداخلية التي تمهّد الأرضية للتدخلات الأجنبية بأشكالها المختلفة القديمة منها والحديثة.

لم تتجل النظرة الإنسانية لدى الكاتبين في رسم صورة تحتوي على التعاطف والإسقاط فحسب، بل تتجلى أيضاً في الموضوعية التي جعلتهما يرسمان صورتهما السلبية للآخر بعيداً عن التشويه، مما يكشف للمتلقي عن تجذّر الثقافة النقدية لدى الكاتبين، فهما يسائلان الآخر دون أن ينالا منه ويهينانه. وجاء هذا نتيجة نظرتهما الطامحة إلى آفاق مشرقة تقلّ فيها السلبيات التي قد رأيناها في العلاقات الإيرانية العربية لتثقل كفة الإيجابيات المرجّحة أساساً، لتجعل «الجيران» في "شرق المتوسط" لا يتعايشان تعايشاً سلمياً فحسب بل يتكاتفان في جوٍّ مفعم بالأخوة والتعامل الشريف لبلوغ ما يليق به المجتمعين الفارسي والعربي من تقدّم و تطوّر في المجالات المختلفة وذلك على خلفية تاريخية تشهد بالتعاون الفارسي العربي في عصور ازدهارها. كما أنّ في الصورة الإيجابية للآخر في النصين المحمودي والمنيفي سلطاناً آخر يبرهن جدوى الرهان على هذا التعامل الانساني الحضاري التعددي.

المصادر و المراجع:

أ: المصادر:

١. المصادر الفارسية:

ـــــ محمود، أحمد، *الأرض المحروقة (زمين سوخته)*، طهران: معين، ط۶، ۲۰۰۵(۱۳۸۲هـ ش).

ـــــــــــــــــــ *الإنسان الحيّ(آدم زنده)*، طهران: معين، ط ۱، ۱۹۹۷(۱۳۷۶هـ . ش).

ـــــــــــــــــــ *الجيران(همسايه‌ها)*، طهران: أمير كبير، ط۳،۱۹۷۹(۱۳۵۷هـش).

ـــــــــــــــــــ *قصّة مدينة(داستان يک شهر)*، طهران: ط۶، ۲۰۰۱(۱۳۷۹هـ .ش).

٢. المصادر العربية:

ـــــ منيف، عبد الرحمن، *أرض السواد*، [ثلاثة أجزاء] بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٣، ٢٠٠٢.

ـــــــــــــــــــ *سباق المسافات الطويلة*، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٨، ٢٠٠٠.

ـــــــــــــــــــ *شرق المتوسط*، تونس: دار الجنوب، سلسلة عيون المعاصرة، ١٩٨٣.

بـ : المراجع:

١. المراجع الفارسية:

ـ آبراهاميان، يرواند، *ايران بين دو انقلاب*، ترجمة: كاظم فيروزمند وديگران، تهران: نشر مركز، چ۸، ۱۳۸۳.

ـ صانعي، ترانه، «گزارشي از مراسم به خاك سپاري احمد محمود»، *چيستا*، س ۲۰، ش ۲ و۳، ش رديف ۱۹۲ و۱۹۳، آبان وآذر ۱۳۸۱.

ـ محمود، احمد « گفتگو با احمد محمود نويسندهٔ رمان مدار صفر درجه بهترين رمان ايراني سال ۱۳۷۲»، *گردون*، س ۵، ش ۴۱، مرداد ماه ۱۳۷۳.

ـــــــــــــــــــ«خاموشي احمد محمود: گفتگوي احمد محمود با دكتر قمر غفار وعلي دهباشي»، *بخارا*، س ۴، ش ۷ (پي در پي ۲۵)، مرداد ـ شهريور ۱۳۸۱.

۲. المراجع العربية:

ـــــ *الكتاب المقدّس العهد الجديد*، الترجمة العربية الجديدة من اللغة الأصلية، بيروت: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، النشرة الرابعة،١٩٩٣.

ـ الجمل، شوقي عطاء الله وعبدالله عبد الرزاق إبراهيم، *تاريخ العالم العربي الحديث (من الفتح العثماني للعالم العربي إلى الوقت الحاضر)*، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط ١، ١٩٩٧.

ـ جيرمونسكي، فيكتور مكسيموفيتش، *علم الأدب المقارن شرق وغرب*، تر: غسان مرتضى، حمص، سوريا، د. منشورات، ط١، ٢٠٠٤.

ـــــ حجازى، مصطفى، *الإنسان المهدور*، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٦.

ـ السيّد، غسّان، *الحرية الوجودية بين الفكر والواقع*، دمشق: دار الرحاب، ط٢، ٢٠٠١.

ـــــ غليون، برهان ،«الثقافات والحضارات: بين الحوار والصراع»، *الآداب* ،٣/٤- ٢٠٠٠.

ـ فضل، صلاح، «التجريب في الإبداع الروائي»، ضمن كتاب *(الرواية العربية وممكنات السرد*: ندوة مهرجان القرين الثقافي الحادي عشر، ج١، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، [د. ط]، ٢٠٠٤).

ـ القوادري، سعاد، «حوار خاصّ أجراه الباحث مع السيدة سعاد القوادري»، فى تاريخ ٣/ ٢٠٠٩/١.

ـــــ الموسوي الشريف الرضي، محمد بن الحسين [جامع]، *نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام*، طهران: مؤسسة نهج البلاغة، ط١، ١٣٧٢ هـ ش ـ ١٤١٣ هـ ق.